مقاومة الآخر في الرواية السورية

المقاومة الفكريّة

د. خالد عمر بسير*

إبراهيم خليل الشبلي **

الـــــــمـلـــــــخُـــــص

يتناول هذا البحث مقاومة الآخر كما قدّمتها الرواية السورية، ولاسيّما المقاومة الفكريّة، التي كان لها دورٌ كبيرٌ في توعية الجماهير، والتحذير من الخطر الذي يمثّله الغرب الاستعماري، وما تفرضه العولمة من أسبابٍ توجب مواجهة التحدّيات التي تعصف بالذات.

الكلمات المفتاحيّة:

- الذات.
- الآخر.
- مقاومة.
- فكريّة.

---

* أستاذ مساعد، قسم اللغة العربية، كلية الآداب، جامعة تشرين، اللاذقيّة.

** طالب دكتوراه- قسم اللغة العربية، كلية الآداب، جامعة تشرين، اللاذقية.

المقدمة

شكّل الآخر تحدّياً كبيراً للذات؛ إذ حاول بشتّى الوسائل أن يطمس هويّتها، ويجعل منها تابعاً يُسهم في ضمان مصالحها، وقد حضر الآخر بأشكالٍ مختلفة، فقد يحضر بوصفه غازياً أو مُبشّراً أو مُستعمراً. ومهما كانت صفة حضوره، فإنّه يُستثمَر في الخطاب الروائي العربي؛ ليقدّم صورةً لشخصيّةِ الأخر. وقد استنفر هذا الحضور طاقات الذات لمواجهة الخطر الذي يمثّله الآخر، ولاسيّما في ظلّ أطماعه الاستعماريّة، ما جعل الشخصيّة الروائيّة المُمثّلة للذات تقاومه.

أهميّة البحث

يسعى هذا البحث إلى اختبار فاعلية الخطاب الروائي السوري في مرحلةٍ مُهمّةٍ من مراحل عطائه في تصدّيه لمسألة المواجهة الحضاريّة، مثلما يتوجّه إلى وعي إمكانيّة هذا الخطاب في إنتاج صورٍ متباينة غير نمطيّةٍ للآخر، وإلى العلاقة التي تحكم ثنائية (الذات/ الآخر).

منهج البحث

يقوم البحث على المنهج التحليلي الذي يفيد من تقنيات تحليل الخطاب السردي، كالوحدات السرديّة، والشخصيّة والزمان والمكان وحوافز السرد الحكائي، وقانون التوازي ...

-المقاومة الفكريّة:

لعلّ خروج الدول الاستعمارية من البلاد العربيّة بنهاية حقبة الاستعمار، لم يكن الفصل الأخير من فصول اضطهادها للشعوب واستغلالها؛ إذ لم يكن خروج المُستعمِر خروجاً نهائيّاً من الحياة العربيّة، فقد مثّل الغزو الثقافي نمطاً من أنماط السيطرة على الشعوب والتحكُّم بمقدّراتها ومصائرها؛ لتغدو أمام نزوعٍ حضاريٍّ يحاول بشتّى الوسائل أن يُخضع الآخر لإرادته؛ إذ زعمت القوى الغربيّة أنّها حريصةٌ على مصالح الشعوب، وأنّها تتطلّع إلى تحقيق آمالها في الحريّة والديمقراطيّة، ولكنّها تُخفي تحت شعاراتها البرّاقة مآربَ أخرى تُسهم في تحقيق مصالحها الاقتصاديّة والسياسيّة على حساب الشعوب الأخرى. ولأهميّة تلك المصالح في التحكُّم بمقدّرات الشعوب ظهرت نظريّاتٌ جديدةٌ في الغرب تنادي بالعولمة، وقد سعت القوى الغربيّة_ عبر طرحها لمسألة العولمة_ إلى أنْ تُذيب خصوصيّات الشعوب وتسلبها هويّتها الحضاريّة، ودعت إلى إقامة نظامٍ عالميٍّ جديدٍ يقوم على أسسٍ جديدةٍ تتفاعل مع العالم بوصفه قريةً كونيّةً تخدم مصالح القطب الواحد على حساب بقيّة الشعوب والأمم. إنّها ((عولمة الهويّات والمجتمعات والأوطان، عبر الشبكات والأسواق والهجرات التي تبدو أقوى أو أولى من العقائد و الإيديولوجيّات. تلك هي ثمرة الطرقات السريعة للإعلام من جهةٍ، و للسرعة في تحرّك الأشخاص وانتقالهم عبر القارات من جهةٍ أخرى: تبدّل وجه الحياة على الأرض، وذلك بخلق واقعٍ بلا حدودٍ نهائيّةٍ، وبلا هويّاتٍ مُتميزةٍ بصورةٍ حاسمةٍ، بذلك تصبح خارجيّة المكان الوجه الآخر لمرونة الهويّات. الأمر الذي يضع الهويّة موضع التساؤل بفتحها على تعدُّد الأمكنة والعوالم والانتماءات. وهكذا ينفتح الآن المجال لتشكيل هويّاتٍ مُتعدّدة الانتماءات في موازاة الشركات مُتعدّدة الجنسيّات))[1]؛ لذا فإنّ البحث عن آلياتٍ تحافظ على الذات، وتصون الهويّة

---

[1]- حرب، علي، حديث النهايات، ص(٣٤).

أمام الأخطار والتحديات التي تواجهها أضحى أمراً مصيرياً، فعلى الرغم من حديث الغرب المتواصل والمستمرّ عن حوار الحضارات والتواصل الحضاري، والشعارات البرّاقة التي يرفعها في هذا الإطار، فإنّ الحوار محكومٌ بلغته هو ونظرته هو، وما تفرضه تلك النظرة من استيعابٍ للحضاراتِ الأخرى، ومن ثَمّ تبديدها، و ((هي عمليةٌ أشبه ما تكون بالغزو الحضاري .. والسؤال الذي ما فتئ يطرح نفسه، منذ بدايات ما سُمّيَ بعصر النهضة العربيّة، وفي ظلّ هذا العَسْفِ الحضاري والمستبد: ما مدى قدرتنا على ضبط مسار آليّة الاحتكاك و التفاعل مع هذه الحضارة المسيطرة ؟ بما يخدم خصوصيّة الوجود الحضاري العربي))[1]. وإذا كنّا لا نستطيع أن ننكر التقدّم الهائل الذي حقّقته العولمة في التواصل وتطوير آليات التفاعل والاتصال والإنتاج، وتبادل المعارف والأفكار بين الحضارات المختلفة، إلا أنّ ذلك النزوع الحضاري الغربي _ إن صحّ التعبير _ ليس مُسالماً أو حريصاً على حياة الشعوب الأخرى أو مصالحها، ذلك أنّ ((الإمبراطوريّات التوسعيّة لا تخاطب البشر بأهدافها في التوسُّع والثروة والسرقة والهيمنة، بل باسم القيم السامية. يجب شحن الجيوش الغازية بمفاهيمَ لا علاقة لها بأصل العدوان: وعدٌ إلهيٌّ، مجدُ الأمّة، رسالةُ الشعب، تحريرُ الآخر))[2]، وإذا لم تكن للحضارات القويّة أطماعٌ مكشوفةٌ أمام الشعوب الأخرى، فإنّها تسعى إلى التأثير في الرأي العام، بما يساعد في تسويغ مخطّطاتها الاستعماريّة، كما حدث في الغزو الأمريكي للعراق عام ٢٠٠٣ على سبيل المثال، وهذا السلوك ليس جديداً أو وليد اللحظة الراهنة، بل هو نهجٌ اتّبعه الغرب منذ مئات السنين، وقد تجلّى ذلك السلوك في الاستشراق، الذي كان يخدم المصالح السياسيّة والاقتصاديّة للغرب، فقد((كانت محاولة توحيد الهدف و الرؤية للاستشراق تتمُّ في كثيرٍ

---

[1]- الحلاق، محمد راتب، نحن والآخر، ص(٤٦).

[2]- برقاوي، أحمد، الأنا، ص(٩٦).

مـن الأحـايين مـن خـلال دوافـع سياسـيّة. حـين تتـزاحم المشـاكل المتّصـلة بالشـرق أمـام صـانع القـرار الغربـي فيسـتعين بعلمـاء الاستشـراق لكـي يكثّفـوا جهـودهم لإضـاءة منـاطقَ معيّنـةٍ اعتمـاداً علـى مُسـلّمةٍ سـارت عليهـا الثقافـة الغربيّـة زمنـاً طـويلاً وهـي شـدّة العلاقـة بـين المعرفـة والقـوّة، وارتبـاط كـلٌّ منهمـا بـالآخر))[1]. وهذا الأمـر يشـير إلـى الأهميّـة الكبـرى التـي أولاهـا الغـرب لنشـر مفـاهيمْ وأفكـارٍ تتمـاهى مـع سياسـاته؛ ليخضـع بقيّـة الشـعوب لهيمنتـه مـن جهـةٍ، ويجعـل منهـا مجرّد تابعٍ له من جهـةٍ أخـرى. وهـذا مـا أشـار إليـه الـراوي فـي روايـة (أعـدائي)، عنـدما وصـف المسـارد حـال المـدارس التـي أنشـأها الفرنسـيون ومـدى تأثيرهـا فـي وعي (إبـراهيم)، الـذي ((وصـل فـي المدرسـة بالفعـل إلـى حـد أنّـه صـار يعـرف عن التـاريخ الفرنسـي والإنكليـزي، أكثـر ممّـا يعـرف عـن تـاريخ العـرب والإسـلام. وحتّـى بـدأ يتسـرّب إلـى وعيـه أنّ الإسـلام مـلازمٌ للمشـايخ والفلاحـين والجهلـة والبـدو. وأنّ الحضـارة هـي هنـاك فـي أوروبـا، التـي لا يـرى منهـا إلا مـا تُقدّمـه المدرسـة، تاريخـاً ولغـةً وآدابـاً. كأنّـه يتحضّـر حـين يتحـدّث بالفرنسـية بـدلاً مـن العربيّـة. وحـين يعـرف شـعر فـرلين ويجهـل شـعر البحتـري))[2]. مـا يقاسـيه (إبراهيم) يمثّل تحـدّياً كبيـراً، فهـو يـتعلّم ليبنـيَ ذاتـه ومسـتقبله، ولكنّـه يشـعر بخيبـةٍ كبيـرةٍ عنـدما لا تصـبح المدرسـة سـوى أداةٍ مـن أدوات ترسـيخ الاسـتعمار وتـأثيره فـي وعـي الشـعوب المُسـتعمَرة، ذلـك التـأثير الفكـري الـذي يبـدو مـن منظـور(إبـراهيم) أشـدّ وأخطـر مـن الاسـتعمار العسـكري؛ لأنّ آثـاره تسـتمرّ حتّـى بعـد حصـول الشـعوب علـى اسـتقلالها السياسـي؛ لأنّهـا تبقـى تعـاني ممّـا خلّفـه المُسـتعمِر مـن أفكـارٍ تُسـهِم فـي تقـويض أيّ حلـمٍ فـي تحقيـق مشـروعٍ حضـاريٍّ صـلبٍ يضـمن الصـمود أمـام أطماعـه ومصـالحه المختلفـة، ومـن هنـا تبـرز الخطـورة الكبـرى لمـا عـرف بـ ((الغـزو الثقـافي))، الـذي يُمثّـل تحـدّياً كبيـراً للـذات يوجـب عليهـا أن تعتصـمَ بكـلّ مـا مـن شـأنه حمايتهـا والحفـاظ علـى

---

[1]- درويش، أحمد، الاستشراق الفرنسي والأدب العربي، ص(٢٠).

[2]- عدوان، ممدوح، أعدائي، ص(٢١٠).

خصوصيتها؛ لذا لا بدَّ من مقاومة ذلك الغزو الفكري بشتَّى الوسائل، ولاسيَّما لدى المثقَّفين والمفكِّرين، الذين لم يقدِّموا مشروعاً فكريّاً ناضجاً؛ إذ لا نجد منذ ما عُرف بعصر النهضة العربيَّة إلا الإخفاقات الكبرى التي عاشها ويعيشها مثقَّفونا، فقد كانوا أسرى لأزمةٍ ((تتمثَّل في فقدان المصداقيَّة الفكريَّة وانعدام الفاعليَّة النضاليَّة. لقد أفلسوا فكريّاً. أخفقت مشاريعهم النضاليَّة حيث وجدت طريقها إلى التطبيق. وهذه الأزمة هي التي تستدعي إثارة الأسئلة وإعادة النظر في كلِّ ما هو مطروحٌ أو متداولٌ في خطابات المثقَّفين من الشعارات: لماذا تقلَّصت فسحة الحريَّات؟ أو لماذا تراجع عصر التنوير عن ذي قبل؟ أو كيف نفهم أنَّ دعاة الديمقراطيَّة من المثقَّفين لا يحسنون سوى نقضها أو تلغيمها))[1]، وهذا يشير إلى أنَّ الأزمة التي يعيشها المجتمع العربي لا تتمثَّل في المواجهة الحضاريَّة مع الغرب فحسب، بل ثمَّة أزماتٌ داخليَّةٌ تزيد من التحدِّيات التي تواجه بنية المجتمعات العربيَّة، فقد تشظَّت الذات العربيَّة وتمزَّقت انطلاقاً من الأيديولوجيَّات أو الاتجاهات الفكريَّة التي يدين بها كلُّ طرفٍ؛ إذ انقسم المفكِّرون بين علماني، وسلفي، وليبرالي، و حداثي... إضافةً إلى الانقسام العريض أو الجوهري بين المثقَّفين العرب (رأسمالي/ اشتراكي)، وقد انعكس ذلك الانقسام بشكلٍ سلبيٍّ على الذات، فقد أصبحت تعيش صراعاً داخليّاً بين التيارات الفكريَّة المختلفة، ما جعل التناحر الداخلي يستنفد طاقات المفكِّرين على حساب الصراع الحضاري مع الآخر[2]. وقد تنبَّهت الجماهير العربيَّة إلى ذلك الخطر، إلى درجة أنَّ وعيَ بعض الجماهير بخطر اليهود ومخطَّطاتهم يبدو أكبر من وعي بعض المفكِّرين والمثقَّفين الذين لم يكترثوا لذلك الخطر؛ إذ كانوا يستخفُّون به، وهذا ما أشار إليه الراوي على لسان (إبراهيم عارف إبراهيم)، عندما وصف آراء محاوريه حول اليهود وخطرهم، بقول (إبراهيم): ((فتهمد النفوس من جديد. ويبدأ الحوار السياسي

---

[1]- حرب، علي، الفكر والحدث، ص(٧٤).

[2]- ينظر: الذات والمهماز، ص(٦٢).

مُنطلقاً من الدهشة الدائمة لدى الجميع لوجود هذا الوعي السياسي بخطر اليهود عند فلّاحٍ في الجبال قرب اللاذقية، بينما المثقّفون والمناضلون تمرُّ عليهم لعبة الماسونيّة التي يتخفّى وراءها اليهود))[1]. يبدو الراوي في هذا المقطع السردي مُحايداً؛ إذ يستخدم ضمير الغائب؛ ليشير إلى ذلك الوعي الذي تتّسم به الشخصيّات البسيطة في المجتمع الروائي، ولكنّ ذلك الوعي يبقى رهين ردود الأفعال لا غير؛ إذ لا يُترجَم إلى سلوكٍ فعّالٍ في مقاومة أطماع اليهود، ولعلّ السؤال الذي يجب أن يطرحه المرء في هذا السياق: ما جدوى إدراك خطر اليهود الذي يهدّد الذات دون أن تمتلك الأدوات الملائمة لمقاومة مشاريعهم الخبيثة ؟ على العكس ممّا نلاحظه لدى الغرب، الذي طوّع الباحثين والمستشرقين، وجعل من الاستشراق أداةً طيّعةً لتحقيق أهدافه وفرض سياساته وهيمنته؛ لذا ((سرى إحساسٌ عامٌّ، بأنّ المستشرق، لا يمكن أن يكون حسن النيّة، ولا أن يكون موضوعيّاً وعلميّاً، حين يتعلّق الأمر بالإسلام والعرب. وهناك إحساسٌ مُستديمٌ، بأنّ المستشرق لا يمكن أن يكون مستقلّاً في بحوثه، وفي توجُّهاته. فهو تابعٌ _ بالضرورة_ لجهةٍ معاديةٍ للإسلام وللعرب وللمسلمين، أو هو رأس حربةٍ في منظّمةٍ سريّةٍ، متآمرةٍ على دين المسلمين وحضارتهم))[2]. وإذا لم يكن بمقدور الغرب أن يعيد حملاته التبشيريّة_ لأنّها تتناقض مع ما يعلنه من مدنيّةٍ وعلمانيّةٍ _ فإنّه يسعى بوساطة الاستشراق والعولمة إلى نشر ثقافةٍ تساعده على تحقيق أهدافه وضمان مصالحه، ذلك أنّه ((أينما ذهب الغرب نشر حيث ذهب ثقافةً استعماريّةً تعمل على إضعاف الروح المعنويّة في الشعوب التي نزلت بها، وعلى قتل معنى الاعتماد على النفس في تلك الشعوب، كما نشر بينها روحاً ماديّةً قتّالاً للإيمان والمبادئ الإسلاميّة وتوطيداً للاستعمار وآثاره))[3]، وهذا يشير إلى أنّ الآخر (الغربي)

---

[1]- ممدوح عدوان، أعدائي، ص(٨٧).

[2]- الحلاق، محمد راتب، نحن والآخر، ص(٢٦).

[3]- الاستشراق رسالة استعمار، تطور الصراع الغربي مع الإسلام، ص(١٣٤).

على وجه التحديد، يسعى إلى طمس هويّة الذات وجعلها مجرّد خاضع أو تابع، إن لم يكن على المستوى السياسي، فعلى المستوى الفكري والثقافي على أقلّ تقدير، الأمر الذي دفع غير قليلٍ من المثقّفين إلى أن يرفعوا صوتهم عالياً بوجه المُستعمِر مُحذّرين من الخطر الذي يُشكّله على البلاد، ولكنّهم يدفعون ثمن ذلك الاعتقال والتنكيل، وهذا ما أشار إليه الراوي عبر الخطاب الذي يُقدّمه (سميح) في حواره مع (إبراهيم)، وهو يصف ما تعرّض له رئيس تحرير جريدةٍ، حاول أن يفضح اليهود ومخطّطاتهم؛ إذ ((قال إبراهيم بخوف : ولكن هذه الأيام يشنقون أصحاب الأصوات المعارضة.

فأجاب سميح: هو عقله هكذا. لا يخرج من السجن إلا ليعود إليه. ويرى أنّ المثقّف يجب أن يذهب إلى السجن في ظلّ حكومةٍ ظالمةٍ موالية لليهود، إن لم يستطع أن يوقف ما تفعله. ولذلك فهو يذهب إلى السجن لأكثر من سببٍ. لمعاداته لليهود، وفضحه لمخطّطات بعض رجالات الدولة ولبعض الصفقات التي تتمّ لصالح اليهود، ولتحريضه للناس. مئة سببٍ وسببٍ))[1]. يشير الراوي عبر الخطاب المباشر الذي يقدّمه (سميح) إلى ذلك التواطؤ غير المعلن بين العثمانيين واليهود، فقد أصبح مجرّد الحديث عن مخطّطاتهم وخطرهم تهمةً تُلقي بصاحبها في غيابة السجن والتعذيب؛ ليظهر العثمانيون مظهر من يدافع عن مصالح اليهود في تناقضٍ صارخٍ بين ما يظهرونه من حملٍ للواء الخلافة والدفاع عن الإسلام، وما يضمرونه من نوايا خبيثة تستهدف العرب والمسلمين؛ ليشاركوا من حيث يعلمون أو لا يعلمون في تقديم الأسباب الكفيلة بزرع الكيان الصهيوني في قلب الوطن العربي، ذلك الكيان الاستعماري غير التقليدي، لأنّ ((إسرائيل ليست استعماراً عادياً وإنّما هو استعمارٌ إحلاليٌّ، ويسعى لإبادة وتصفيّة الذات العربيّة ممثّلةً في الفلسطينيين. ولذلك فإسرائيل قضيّةٌ حضاريّةٌ، لأنّها تُهدّد وجود الذات العربيّة ... والقضيّة بالنسبة للعرب

---

[1]- عدوان، ممدوح، أعدائي، ص(٣٠٩- ٣١٠).

قضـيّة وجـود بالدرجـة الأولـى))[1]. وإذا كانـت قضـيّة الكيـان الصـهيوني تبـدو قضـيّةً مركزيّـةً فـي الـوعي العربـي، بمـا تنطـوي عليـه مـن غطرسـةٍ واسـتعمارٍ وتلفيـق وتشـويهٍ للحقـائق، فإنّهـا فـي الثقافـة الغربيّـة تبـدو مسـألةً مشـروعةً، بـل إنّ زرع الكيـان الصـهيوني فـي فلسـطين ((قضـيةً عادلـةً مـن منظـور الحداثـة الأوروبيّـة، إذ هـي قضـيّة العقلانيّـة (الأمـة) والديمقراطيّـة (المسـاواة)، أمّـا علـى حسـاب مـن سـيكون تحقيـق مطـامح اليهـود (المشـروعة) هـذه ؟ فـذاك سـؤالٌ لم يكن مـن المفكّـر فيـه فـي أوروبـا، ذلـك أنّ فلسـطين ومـا يجاورهـا بالنسـبة إلـى أيديولوجية الحداثة الأوروبيّـة مـن تلـك المنـاطق التـي تسـكنها أقـوامٌ فـي حاجـةٍ إلـى نشر (الحضـارة) بيـنهم. وهكـذا تجـد الصـهيونيّة مكانهـا فـي النظـام الفكـري للحداثـة الأوروبيّـة عنصـراً مـن عناصـره))[2]. مـن هـذا المنطلـق وبتلـك الرؤيـة تصـبح جـرائم الصـهاينة ووحشـيّتهم واغتصـابهم لـلأرض أفعـالاً مسـوّغةً، طالمـا أنّ الهـدف إقامـة وطـنٍ لشـعبٍ متحضّـرٍ بـلا أرضٍ علـى أرضٍ بـلا شـعبٍ؛ لـذا فـإنّ الصورة التـي قـدّمها ويقـدّمها الإعـلام الغربـي عـن الإسـرائيليين تثيـر الشـفقة علـى تشـرّدهم، بـل تظهـرهم وسـائل الإعـلام الغربيّـة بوصـفهم مسـالمين يـدافعون عـن حقّهم في البقـاء، بينمـا لا نجـد للإعـلام العربـي _علـى الـرغم مـن الصـور الكثيـرة والحقائق التـي يقـدّمها عـن معانـاة الشـعب الفلسـطيني _ أيّ تـأثيرٍ فـي الـرأي العـام العالمي، وإن وجد لـه تـأثيرٌ فهـو محـدودٌ لا يغيّـر كثيـراً مـن الصـور المبثوثـة فـي الـوعي الغربـي، كمـا يلاحـظ المـرء أنّ اليهـود اسـتنفدوا كـلّ طاقـاتهم، وبـذلوا كـلّ ما يسـتطيعون فـي سـبيل تحقيـق هـدفهم الاسـتعماري وإقامـة كيـانهم، علـى النقـيض ممّـا هـو عليـه واقـع العـرب، فعلـى الـرغم مـن التضـحيات الكبيـرة التـي قـدّمها ويقـدّمها الشـعب الفلسـطيني، إلا أنّ العـرب لـم يفلحـوا فـي مواجهـة إسـرائيل وتقويض مخطّطاتهـا، كمـا أخفقـوا فـي مواجهـة مشـروعها فكريّـاً كـذلك، مـا جعلهـم لقمةً سائغةً أمـام الأعـداء، وهـذا مـا يشـير إليـه الـراوي فـي روايـة (الطريـق إلـى

---

[1]- الذات والمهماز، ص(٢٦).

[2]- البرماسي، محمد صالح، مقاربة في إشكالية الهوية، ص(١٥١).

الشمس)، عندما يسرد الحوار الذي يدور بين (عارف إبراهيم) وابنه (إبراهيم) الذي قال محاوراً أباه: ((ألا تلاحظ أنّ قانونك لا يستقوي إلا علينا؟ يشربكنا كيفما تحركنا. يلاحق ابن العرب ويطارده ويجوّعه وينفيه. ويزجُّ به في جيشٍ تافهٍ ليخوض حرباً لم يكن لها مبررٌ. وقانونك نفسه هو الذي يرتبك أمام اليهود وأبناء الجنسيّات الأجنبيّة. وهو الذي يُطأطئ رأسه لكي تمرّ فوقه تجارة الحبوب ومصادرة الأراضي وبيعها. قانونك هو الذي يكسر ظهور الناس بالضرائب حتى يجبرهم على هجر أراضيهم والهرب خارج البلاد كلّها))[1].

يصف الراوي في هذا المقطع السردي حال التوتُّر بين (إبراهيم) وأبيه حول موقف كلٌّ منهما من العثمانيين، وكيف أنّ إبراهيم يراهم قوماً مخادعين يصبُّون جام غضبهم على العرب، ويجبرونهم على الخدمة في جيوشهم والموت في سبيل بقاء سلطتهم على البلاد ورقاب العباد، بينما يُمثِّل العثمانيون من وجهة نظر (عارف إبراهيم) سدّاً يحمي من الخطر الذي يُشكّله الإنكليز واليهود، وكأنّنا أمام صراع أجيالٍ بين الشباب الذين يمتلكون الجرأة والقدرة على النقد والتشكيك، فأحاديثهم تحذّر من خطر اليهود والإنكليز والفرنسيين، كما حاولوا أن يرشدوا الناس إلى الحقيقة ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً، والآباء الذين لا يملكون إلا أن يرضوا بالأمر الواقع؛ لذا فإنّ (إبراهيم) يشعر بالقوّة عندما يسمع أحاديث أصدقائه؛ إذ يدرك قوّة عزيمتهم وإصرارهم على النضال الفكري، فهو يطرب لأحاديثهم، وقد كان يسمع لأحدهم يقول:((لا تخافوا يا شباب. بلدنا لن يخضع. وبلدنا يعبّر عن إرادته من خلال شبابه. وحتى الإعدامات لن تزيد الناس إلا تصميماً على متابعة النضال. لكنّ معركتنا طويلة. وعدوّنا ليس واحداً. وليس سهلاً. أحاديثٌ كهذه كانت تجعل إبراهيم يحسُّ أنّه قد صار قويّاً وكثيراً. نعم " كثيراً". يحسُّ أنّه أكثرُ من واحدٍ. وأنّه ليّنٌ وحيداً مُستضعَفاً. وصار يتمنّى أن يقضيَ عمره إلى جانب هؤلاء ليتشبّع

---

[1]- عدوان، ممدوح، ص(٣٤٠).

من أحاديثهم))[1]. يصوّر الراوي حال (إبراهيم) وقد سرى في جسمه إحساسٌ بأنّه قويٌ، وكأنّه يودُ الإشارة إلى أهميّة الفكر في تعزيز الروح المعنويّة، ورفع القدرة على المقاومة بشتّى الوسائل، وبما أنّهم مثقّفون، فقد قرّروا أن يقاوموا بأفكارهم وأقلامهم وألسنتهم، وتلك مقاومةٌ لا يستهان بها على أيّة حالٍ؛ لذا نجد أنّ الغرب يجنّد المستشرقين والباحثين ليرسموا صوراً للآخر تتماهى مع سياساته التوسّعيّة، فقد أدرك الغرب أهميّة الفكر والثقافة ومدى تأثيرهما في الوعي العام لشعوبه، بما يساعد على تسويغ حروبه وتنفيذ مخطّطاته؛ لذا يُعدُّ ((الاستشراق نموذجاً مثالياً للتعبير عن العلاقة بين الغرب والشرق، أو الغرب وأوروبا. إنّ الاستشراق يُمثّل فاعلاً وشاهداً في الوقت نفسه، باعتبار أنّ المستشرقين هم الذين رسموا صورة الشرق وروّجوا لها في بلدانهم، على رغم ما شوّشت به أعمال الرحّالة وهواة القصص الشعبي عليهم، عبر دراساتهم الجزئيّة في الزمان والمكان والموضوعات، وشاهداً باعتبار مواكبته للعلاقة التصادميّة بين العرب وأوروبا، ثمّ، أمريكا، عبر الحروب والصراعات. إنّه شاهدٌ على أحداثٍ يُتّهم بأنّه صانعها))[2]. ويذهب إدوارد سعيد إلى أبعد من ذلك، فقد عدّ الاستشراق مذهباً سياسيّاً مفروضاً على الشرق؛ لأنّه كان ضعيفاً أمام الغرب[3].

ويشير الراوي إلى أنّ المدارس التي أحدثها الأوروبيون في الشرق لم تقم لنشر العلم فحسب، بل إنّهم يهدفون منها إلى السيطرة على الشعوب الأخرى، وهذا ما عبّر عنه (إبراهيم)؛ إذ رأى أنّ ((هذه المدارس ليست هنا من أجل العلم فقط. بل إنّها تهدف إلى شيئين أساسيين، وهما متناقضان جداً لمن يتعمّق فيهما. من جهةٍ يريدون نشر الدين المسيحي. ومن جهةٍ أخرى يريدون من الشبّان المسلمين التمرّد ضدّ دينهم بحجّة التقدّم والتنوير. ثمّ بحجّة

---

[1]- ناصيف، الطريق إلى الشمس، ص (١٢٣).
[2]- بوطالب، محمد نجيب، العلوم الاجتماعية و الاستشراق، ص(٤٣٤).
[3]- ينظر: سعيد، إدوارد، الاستشراق، ص(٣٢١).

حمايـــة المســـيحيين يفرضـــون وجـــودهم وامتيـــازاتهم ومصـــالحهم علـــى الدولـــة. بينمـــا يتقبّلهـــا الشـــعب الـــذي هـــو فـــي غالبيّتـــه مســـلم لأنّهـــا تمثّـــل أوروبـــا المتحضّـــرة المتقدّمـــة. ولأنّ الشـــعب يحـــسّ بـــنقصٍ تجـــاه هـــذه الحضـــارة، فقـــد جعلـــوه يـــرى أنّ تخلّفه ناجمٌ عن ارتباطه بالدين))[1].

و للمثقّـــف دورٌ مهـــمٌ فـــي توعيـــة الجمـــاهير، ولتحقيـــق ذلـــك عليـــه أن يـــتخلّص من حالـــة النخبويّـــة التـــي يعيشـــها، وأن يكـــون بـــين النـــاس ليقـــوم بـــدوره علـــى أكمـــل وجه. وهذا مـــا أشـــار إليـــه الـــراوي فـــي روايـــة (الطريـــق إلـــى الشـــمس)؛ إذ يســـرد ردّ (الأســـتاذ) علـــى (عزيـــز) فـــي تســـاؤله حـــول الاســـتعمار، يقـــول (عزيـــز): ((الاســـتعمار.. حـــذارِ الاســـتعمار .. هـــو بلاؤنـــا الوحيـــد، خلاصـــنا بـــالخلاص منـــه، كرامتنا بإخراجه مـــن أرضـــنا، لا أمـــل مـــن مســـتعمرٍ، هـــو عـــدوٌ فـــلا تقـــربِ العـــدو.. ولا تُقِم معـــه أواصـــر أو كنـــت كمـــن وضـــع الحيّـــة فـــي عبـــه، لا يعلـــم متـــى تلدغـــه))[2]. وقد أخذ (الأستاذ) علـــى عاتقـــه تنـــوير النـــاس الـــذين يحيطـــون بـــه إلـــى الخطـــر الـــذي يمثّلـــه اليهـــود؛ إذ يقـــول مخاطبـــاً جموعـــاً مـــن النـــاس: ((المُســـتعمرون كـــذّابون مخـــادعون ... " كـــان يقـــول لـــزوّاره منبّهـــاً محـــذّراً" يحـــذّونكم عـــن الخيـــر وهـــم لا يريـــدون بكـــم إلا الشـــرّ... يتشـــدّقون عـــن المصـــلحة المشـــتركة والمنفعـــة المتبادلـــة، وهـــم لا يســـعَون إلا لمصـــلحتهم، لا يفكّـــرون إلا بمنفعـــتهم))[3]، ولا يقـــف الأمـــر عند هذا الحـــدّ، بـــل يتجـــاوزه ليعبّـــر الخطـــاب الروائـــي الســـوري عـــن دور المـــرأة فـــي النضال، ودفـــع النـــاس إلـــى التظـــاهر ضـــدّ الاســـتعمار، وهـــذا مـــا أشـــار إليـــه الـــراوي عنـــدما وصـــف مظـــاهرةً كانـــت تقودهـــا (نـــازك العابـــد): ((لعلـــع صـــوتها حـــين وصـــلت إلـــى المقدّمـــة فـــرددت مئـــات الأفـــواه فـــي الحـــال : " يســـقط الانتـــداب .... يســـقط الاســـتعمار... تســـقط فرنســـا ". وخـــلال ثـــوانٍ بـــدأت المظـــاهرات تشـــقّ طريقهـــا

---

[1]- عدوان، ممدوح، ص(٢٠٩).

[2]- ناصيف، عبد الكريم، الطريق إلى الشمس، ص(١٨٦).

[3]- المصدر السابق نفسه، ص(١٩٠).

في شوارع فغرت أفواهها تعجُّباً من مظاهرةٍ لم تشهدها من قبل))[1]. وإذا كانت الروايات المدروسة قد أشارت إلى ما نال المثقفين من اعتقالٍ وتنكيلٍ وتعذيبٍ منذ نهاية القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين، فإنّ الخطاب ذاته يشير إلى أنّ سلوك المُستعمِر لم يتغيّر _ على الرغم من مرور قرنٍ من الزمن_ مع بداية القرن الحادي والعشرين؛ إذ يصف الراوي في رواية (جنود الله) وحشيّة جنود الاحتلال الأمريكي وهمجيّتهم، وهم القادمون من وطنٍ ينادي صباح مساء بالحضارة والمدنيّة وحقوق الإنسان وحريّة الرأي والتعبير...؟ ! يصوّرهم الراوي وهم ينكّلون بعائلةٍ كاملةٍ لمجرد أنّها تظاهرت ضدّ الوجود الأمريكي في العراق، وعبّرت عن رأيها بشكلٍ سلميٍّ، فكان ردُّ جنود الاحتلال أن قبضوا عليهم وأرسلوهم إلى ((سجن أبو غريب. حقّق معهم المتعاقدون الأمنيّون، واتّهموا بأنّهم من المقاومة. أشرف على تعذيبهم سير جلت وثلاثة جنود أحدهم مُجنّدة، تسلّوا بهم في ليلةٍ تحت أضواء الشموع، وضعوا على رؤوسهم أكياساً سوداء، ونزعوا عنهم ملابسهم، وأرغموهم على تمثيل أفعالٍ جنسيّةٍ بذيئةٍ مع المساجين. بلغت التسلية بالجنود إبلاغ الأب أنّه ارتكب فعلاً جنسيّاً مع أولاده، فانتحر في السجن. أصيب الابن الأكبر بالهيستريا، ظنّوا أنّه يمثّل، هدّدوه بالكلاب، ثمّ أطلقوها عليه، فنهشوا أعضاءه التناسلية، وبقي تحت النزع عدّة ساعاتٍ إلى أن مات))[2]. يتوسّل الراوي في هذا المقطع السردي بجملٍ سرديّةٍ متتاليةٍ؛ ليبرز القسوة التي تتملّك جنود الاحتلال الأمريكي ووحشيّتهم في التعامل مع الشعب العراقي الأعزل، فقد قتلوا عائلةً كاملةً لا ذنب لها إلا أنّها قالت :(لا)[3] للاحتلال، (لا) للطغيان،

---

[1]- المصدر السابق نفسه، ص(٣٩).

[2]-حداد، فواز، جنود الله، ص(٢٠٧).

[3] وتتكرر مظاهر الاعتقال والتنكيل في غير موضع من الروايات المدروسة، ينظر على سبيل المثال: رواية (الطريق إلى الشمس) ص(٤٠، ٥٦، ٦٠)، ورواية (أعدائي) ص(٢٥٨-٢٥٩)، ورواية (جنود الله) ص(١٥٨، ٢٠٧) ....

فجاء الـردُّ بأبشـع أسـاليب التعـذيب وأكثرهـا وحشـيةً مـن جنـود ينتمـون إلـى دولـةٍ ترفـع شـعارات : حقـوق الإنسـان، والعدالـة، والديمقراطيّـة... ولعـلّ هـذا السـلوك الهمجـي يفضـح الازدواجيّـة التـي تعيشـها السياسـة الأمريكيّـة، بـين سياسـاتها الداخليّة، و أفعالها خارج حدودها.

ويصـف الـراوي فـي روايـة (الضـغينة والهـوى) غضـب الجمـاهير مـن سـلطات الانتـداب الفرنسـي؛ إذ ((كانـت التظـاهرة التـي تابعـت سـيرها صـوب الصـالحية، قـد تخلّـف عنهـا بضـعةُ صـبيةٍ، صـوّبوا حجـارتهم إلـى نوافـذ المدرسـة مـع شـتائمَ مُقذِعـةٍ نالـت مـن سـلطات الانتـداب وجنـرالات فرنسـا))[1]. لقـد شـكّلت التظـاهرات السـلميّة أحـد مظـاهر التعبيـر عـن رفـض ممارسـات الاحـتلال الفرنسـي؛ لتغـدو رسـالةً واضـحةً للفرنسـيين، وردّة فعـلٍ تعبّـر عـن رأي الشـعب السوري وموقفه من الاحتلال.

ومهما يكن مـن أمـرٍ، فـإنّ الفكـر العربـي يعـيش أزمـةً عميقـةً منـذ مـا عُـرف بالنهضـة العربيـة؛ إذ لـم يمتلـك أدواتٍ تعـزّز مـن القـدرة علـى مواجهـة الآخـر، وخيـرُ دليـلٍ علـى ذلـك أنّ العـالم الغربـي يسـتطيع عـن طريـق الإعـلام و عـن طريـق الصـحف ((أن يشـكّل العقـل الشـرقي ويسـيطر عليـه لدرجـة أنّـه أصـبح يـرزح تحـت عقـدة الـنقص والشـعور بالـذنب. والشـعوب الشـرقيّة مُجبَـرةٌ علـى أن تحكم على نفسـها بالمعـايير والقـيم الغربيّـة، فتجـد نفسـها عـاجزةً دائمـاً عـن الوفـاء بمتطلّبـات النظـام الغربـي))[2]، إضـافةً إلـى أنّ الشـعار العـريض الـذي يُرفـع ضـد الإمبرياليّة فـي دولنـا العربيّـة لا يعـدو أن يكـون كلامـاً لا طائـل منـه؛ لأنّنـا نحـارب الإمبرياليّـة باللسـان، ولا نسـتطيع الاسـتغناء عـن منجزاتهـا، وعمّـا تقدّمـه لنـا؛ لـذا وضع العرب أيـديهم ((فـوق رؤوسـهم رمـزاً للهزيمـة المُنكَـرة: كـان ذلـك هـو مـا آل إليه العربـي، أي إنّـه تحـوّل مـن الصـورة النمطيّـة الباهتـة باعتبـاره مـن الرُحّـل

---

[1]- حداد، فواز، الضغينة والهوى، ص (١١٤).

[2]- محمد، محضير، موسوعة الدكتور محضير بن محمد، المجلد الثاني(التحدي)، ص(٦٦).

راكبي الجمال إلى صورةٍ كاريكاتوريّةٍ ساخرةٍ باعتباره تجسيداً للعجز ويُسْر القهر، ولم يكن النطاق المسموح به للعربي يزيد عن ذلك))[1].

الخاتمة

قدَّم الخطاب الروائي السوري صورةً للواقع العربي في ظلِّ سعي الآخر الغربي إلى فرض لغته وثقافته على الشعوب الأخرى، وقد صوَّرت الروايات المدروسة مظاهر المقاومة الفكريّة عبر الشخصيات الروائيّة وتأثيرها في الحدث الروائي، ولكنَّ تلك المظاهر لم تكن كفيلةً بإنتاج مشروعٍ نهضويٍّ عربيٍّ حقيقيٍّ، لأسبابٍ كثيرةٍ عبَّر عنها الخطاب الروائي، منها التناحر الداخلي بين مختلف التيّارات الفكريّة والثقافيّة. كما أشارت الرواية السورية إلى المظاهرات والاحتجاجات العارمة، التي عبَّرت عن رفض الشعب للاستعمار، وصوَّرت تطلُّعه إلى الحرية والاستقلال، وصوَّرت تخاذل الحكّام والملوك والرؤساء العرب وتآمر القوى الغربيّة الاستعماريّة وتحالفها مع اليهود لزرع الكيان الصهيوني في فلسطين.

---

[1] - سعيد، إدوارد، الاستشراق، ص(٤٣٧).

المصادر والمراجع:

١- **برقاوي** أحمد،٢٠٠٩- الأنا، دار التكوين للتأليف والترجمة والنشر، دمشق.

٢- **بوطالب** محمد نجيب،١٩٩٩- العلوم الاجتماعية و الاستشراق، ضمن كتاب ضمن كتاب صورة الآخر، العربي ناظراً ومنظوراً إليه، تحرير الطاهر لبيب، مركز دراسات الوحدة العربية، ط١، بيروت.

٣- **التلاوي** محمد نجيب،١٩٩٨- الذات والمهماز، دراسة التقاطب في صراع روايات المواجهة الحضارية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة.

٤- **حداد** فواز، ٢٠١٠- جنود الله، ط١، دار رياض الريس للكتب والنشر، بيروت.

٥- **حداد** فواز، ٢٠١٠ -الضغينة والهوى، ط١، دار كنعان للطباعة و النشر، دمشق.

٦-**حرب** علي،٢٠٠٤- حديث النهايات، فتوحات العولمة ومأزق الهوية، المركز الثقافي العربي، بيروت- الدار البيضاء.

٧- **حرب** علي،١٩٩٧ -الفكر والحدث،حوارات ومحاور، ط١، دار الكنوز الأدبية بيروت.

٨- **حلاق** محمد رائب، ١٩٩٧ -نحن والآخر، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق.

٩-**درويش** أحمد، ١٩٩٧-الاستشراق الفرنسي والأدب العربي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة.

١٠- **سعيد** إدوارد،٢٠٠٦ -الاستشراق، المفاهيم الغربية للشرق،ط١، تعريب محمد عناني رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة.

١١-**عدوان** ممدوح،٢٠٠٠- أعدائي، ط١، دار المدى للطباعة و النشر، بيروت.

١٢- **الفيومي** محمد إبراهيم،١٩٩٣ -الاستشراق رسالة استعمار، تطور الصراع الغربي مع الإسلام، دار الفكر العربي، القاهرة.
١٣- **محمد** محضير،٢٠٠٤ -موسوعة الدكتور محضير بن محمد، المجلد الثاني، ط١، تعريب مجموعة من الباحثين، دار الكتاب اللبناني_ بيروت، دار الكتاب المصري-القاهرة، دار الفكر_ كوالالمبور.
١٤- **ناصيف** عبدا لكريم،٢٠٠٠- الطريق إلى الشمس(الجوزاء)، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق،.
١٥- **الهرماسي** محمد صالح،٢٠٠١ -مقاربة في إشكالية الهوية، المغرب العربي المعاصر، ط١، دار الفكر، دمشق.

The resistance against the other in the Syrian novel. Intellectual resistance

*** Dr. Khaled Omar Yaseer**
Ibrahim khalil Al shbli**

Abstract

This search is about the resistance of the other as presented in the Syrian novel. Especially intellectual Res. Which had large in illuminating the public, and warning them of the danger that is the colonial west and Globalization imposes the difficulties which makes it necessary to face the challenges to identity.

Keyword
-The self
-The other
- resistance
- intellectual

** P. H.D student Department of Arabic Language, Faculty of Arts, Tishreen University.
* Associate Prof., Department of Arabic Language, Faculty of Arts, Tishreen University, Lattakia.